الفيصل

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد الحادي عشر - المجلد الثالث ١٩٩٠م - ١٤١٢هـ

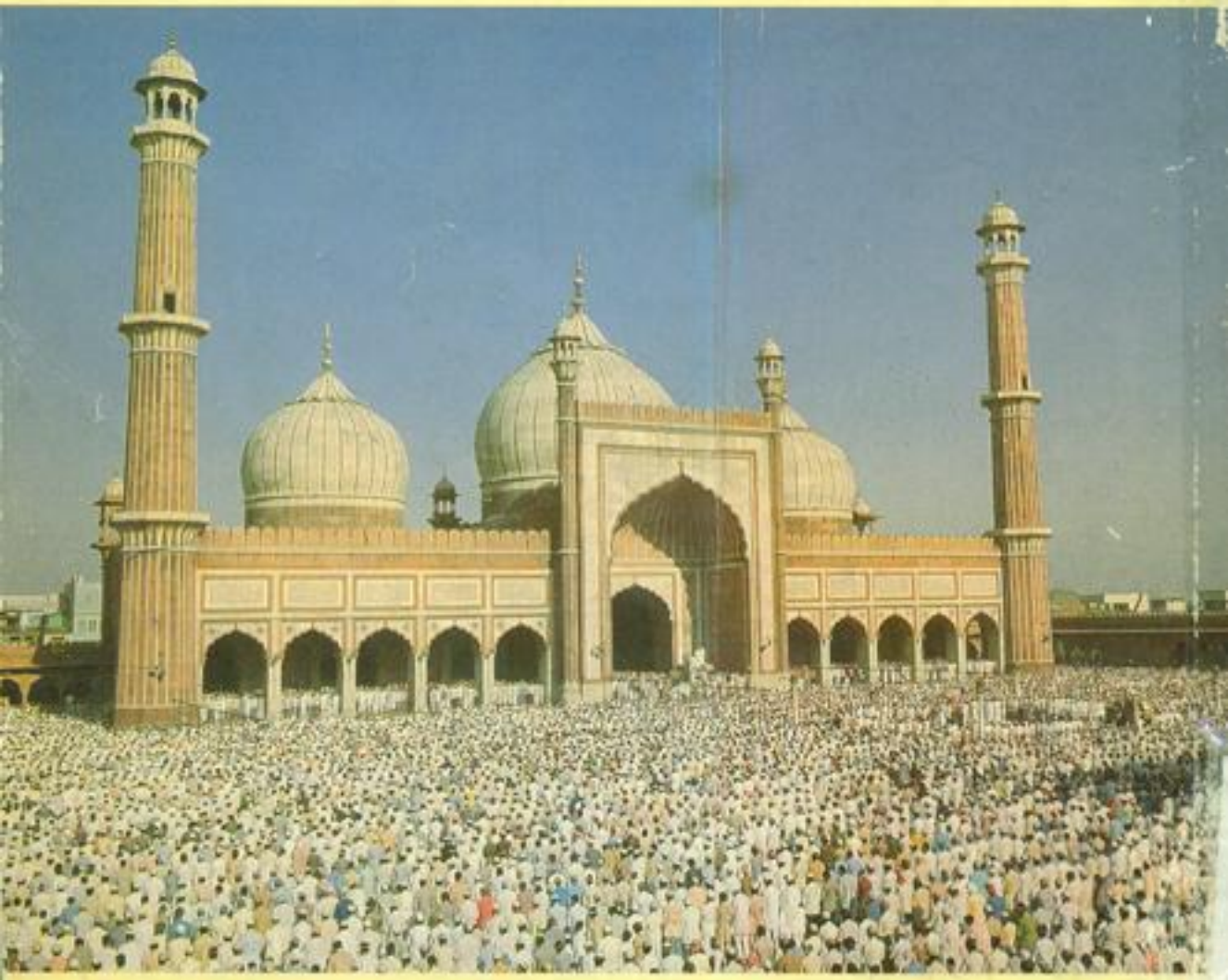

المسجد الجامع في دلهي - الهند

الموسم

فصلية
مجلة
مصورة تعنى بالآثار والتراث

شتاره ثبت ١٣٥٠٤٩
تاريخ ١ خرداد ١٣٨٩
٢١ /١٠/ ١٣٨٩

تصدر عن دار الموسم للإعلام
المراسلات : بيروت ـ لبنان ص.ب ١١٣/٥١٤٤

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

صاحبها ورئيس تحريرها
محمد سعيد الطريحي

الموزعون :

المملكة المتحدة ـ لندن ـ مكتبة الساقي
AL SAQI Books 26 WESTBOURN GROVE, LONDON W2 5RH TEL: 071-2298543, FAX: 071-2297492, TELEX: 919595G

دولة البحرين ـ مكتبة الريف الثقافية ـ شارع حد حفص ص.ب ٢٠٠٣٠ هاتف ٦٤٠٧١٣ ـ ٢٥٠٧٢٤ ، فاكس ٢٥٠٧٢٤ .

لبنان ـ المؤسسة العالمية لتوزيع الكتاب ـ بيروت ص.ب ٧٩٥٢ هاتف 835550-835820 تلكس FAGER-20398LE

سلطنة عمان ـ مكتبة المعرفة ـ مطرح ـ شارع الكورنيش ص.ب ٦٧٦٣ هاتف ٧١٣٦٠٧ فاكس ٧١٤٥٣٩

الهند NAGAFI HOUSE,159 Nishan pada rood Bombay - 400009 Tel: 8720350 - 8513299 - 861455

ايران ـ انتشارات صادق ـ تهران ـ خيابان ناصر خسرو ـ كوچه حاج نايب باساژ مجيدي تلفون ٣٩١٤٠١ ـ ٨٥٢٣٢٥

فرنسا ـ ABBAS AL BOATANI, 12 rue SADI CARNOT 92120 MONTROUGE Tel: 42536728

الاشتراك السنوي: للافراد ٤٣٠ وللمؤسسات ٤٥٠ يرسل باسم صاحب المجلة الى
بنك الاعتماد اللبناني فرع شتورة ـ لبنان رقم الحساب:
CRÉDIT LIBANAIS SAL AGENCE: CHTAURA, Lebanon No: 20.01.161.23138.00.10

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

وعي الوعي
بين الحياة والموت

بقلم : الدكتور أسعد علي

* دراسة عن قصيدة الشيخ محمد حمدان الخير *

كيف ندخل إلى هذا الربع ؟

إنه مربع : الجمال ، والحب ، والفن ، والوعي . تأملته ، دائراً حول أضلاعه العجيبة . جمالاً وحباً وفناً ووعياً . . واهتديت بالتأمل المخلص الصبور . . فعرفت المدخل والمفتاح . . فمن أين تطلون الدخول؟

هذا هو المدخل من الوعي :

فنحن لا نتذوق الجمال إذا لم نفهمه ، ونتلاقى كل يوم ؛ لكننا لا نراه في شروق الشمس ، وتفتح الزهر ، وزقزقات الطيور ، ولغو الأطفال . . إذا لم يمنحنا الوعيُ مفتاح التذوق .

والحبُّ مثل الجمال ، ومتلازمٌ معه . . نراه في الوطن . . وفي الشعب . . نراه في العلم وفي العمل . . نراه في الخاص وفي العام . . لكنه يظل مجهولاً بالنسبة لنا ، ما لم يتفضل علينا الوعيُ بمفتاح التذوق وفتوحاته . .

والفنُّ صورٌ من التلازم بين الجمال والحبّ ، وعبارة عن جدليتهما ، أو تبادليتهما ، كما يحبّ القول أحدُ عباقرتنا . . نسمع بالفنّ . . ونرى صور الفنّ ، شعراً ونثراً في الأدب . . رقصاً وموسيقى . . رسماً ورياضة . . ومع ذلك لا نغتبط بكل هذه الصور الفنيّة ما لم يتفتّح الوعيُ بنا . .

والوعيُ . . ما هو الوعيُ ؟ ما ظاهره وما باطنه ؟ كيف نفهم به كلَّ جمال وحب وفن ؟ كيف نشعُرُ به هو؟ كيف نعرفُ سرَّه الذي يقدّم إنساناً ويؤخر غيره . . يرفع شعباً ويهبط بآخر ؟. ما الوعي ، هذا السرُّ المعرفيُّ المقدّس ؟

إنَّ الوعي مدخلٌ عالميٌّ ومفتاحٌ إنسانيٌّ . . به يبلُغ الإنسانُ ما يبلُغه من درجات التذوق ، معرفة وعملاً . . فما هي الدّرجة التي بلغها : محمد حمدان الخير من تذوُّق الجمال والحبّ والفنّ والوعي ؟ هل في شعره ما يُصوِّرُ لنا معاناته ومذاقاته ؟ وهل في شعره ما يستحثُّ قوّة الإنسان ليبلغ الوعيَ الذي يجعلُه حراً ؟

إنَّ الحرّية مطمح الإنسان الأعلى . . يقول السيد المسيح : اعرفوا الحق والحق يحرركم . .

لمحمَّد حمدان ديوانُ شعرٍ ، أضخم من ديوان المتنبِّي حجماً . . لكن ضخامة الحجم ، هل تعني ضخامة نوعٍ شعريّ يحتفلُ له ؟ . . وسؤالٌ آخرُ : مَن اطَّلع على هذا الديوان ؛ ليحكم على قيمةِ نوعه ، فنّاً وحياةً ؟

أطلعني ذووه على إحدى وستين مطوَّلةً من قصائده . . فيها حوالى ستة آلاف بيتٍ من الشعر العربيِّ الأساسي ، أعني بالشعر العربيِّ الأساسيِّ ما صيغ وفقَ تقاليدنا الشعرية القديمة ، مراعاةَ وزنٍ وقافية . .

وقد صوِّر ثلثُ هذه القصائد تقريباً ، ومُنحْتُ نسخةً منها ، فيها أربعُ وعشرون قصيدة . . تتجاوز أبياتُها الألفين . .

إنَّ النظرةَ الشكلية لهذه القصائد تُوزِّعُها إلى زمر ؛ منها ثماني قصائد للرثاء ؛ وثمانٍ منها لمراسلات الأصدقاء ؛ وسبع لموضوعاتٍ وطنيَّة وقومية ودينيَّة واجتماعية وتربوية ؛ وواحدةٌ لوعيِ الوعي في تاريخ الغير وفي حياة الذات . .

في الزمرة الأولى رثى ثمانيةً من أصدقائه العلماء ، هم : محمد حامد ابراهيم . . حبيب عبد الصَّالح . . صالح ناصر الحكيم . . عبد صالح يوسف بشمان . . حسين ميهوب حرفوش . . ووالده حمدان الخيِّر . . والدكتور وجيه محي الدين . . والثامن أحد أصفيائه ، عزَّاه حيًّا عن مصيبة أصابته في جسمه . .

هو في هذه الزمرة من قصائد الرثاء يتجاوز المُتعارف في فنِّ الرِّثاء إلى أغراض الشعرِ وموضوعاته الأساسيَّة ، مثل : الزمن : الحب : الموت : الدين : الانسانية : الكبت والعزلة الاجتماعية : الهجاء الاجتماعي : وصناعة الشعر . .

تمكن إقامةُ دراسةٍ متمهلة على أغراضِ هذا النوع من شعره . . وتلاحظُ مرتبة وعيه لمربَّع : الجمالِ ، والحبِّ ، والفنِّ ، والوعي . . فمن ينهض بهذه الدراسة قبل نشر شعره ؟

وسيجدُ الدارسُ أنَّ من أصدقاءِ هذا الشاعر علماءَ لهم آثارهم ؛ فقد أطلعني السيد علي حرفوش على مخطوطة «الذريعة إلى المغمورين من شعراء الضيعة» ، وفيها أخبار وأشعار لحوالى ستمائة شاعر ، جمعها أحد هؤلاء العلماء الذين رثاهم محمد حمدان . . أعني حسين ميهوب حرفوش . . ومعظمهم مغمور فعلاً ، لم أسمع بهم من قبل . . ولذلك معناه في عصر الكشوف . . . فماذا نجد لو انتقلنا إلى الزمرة الثانية من أصدقاء شاعرنا ؟

في الزمرة الثانية من قصائد محمد حمدان الخيِّر مراسلاتٌ لثمانية آخرين ، هم : سليمان العيسى . . وأحمد علي حسن . . وعبد اللطيف سعود . . وقصائده لهؤلاء الثلاثة نوعٌ من النَّقد الأدبيِّ ، يُحدِّد فيه رأيه بالشعر عموماً وبشعره خصوصاً ، وبالأوضاع القومية الراهنة التي أفرزت أصلاء ومدَّعين . . ومن هذا النوع النقديِّ قصيدته للطبيب ابراهيم الخيِّر ، وان كان فيها حديث الطبِّ والأخلاق الموروثة والمكتسبة . .

أما قصيدته «مسارح الوصفِ» التي أرسلها لنجم الدين الخيِّر فمثال للشعر الفكاهيِّ ؛ الذي يُضفي على الآخر صفاتٍ مبالَغاً فيها ، تعبر عن النصبوة إلى المثلِ الأعلى وإن أثارت الضحك للمفارقة البعيدة بين الواقع والمثال . . وفيها وصف واقعيٌّ نادر للحياة الشعبية في الأرياف الزراعية . .

وفي «حكاية ساعة» و«خيال الصّدى» يخاطب الذين لم يصرّح باسميهما ، لكنّه يوقظ فكرة الزّمن الأزليّ في حديثه عن السّاعة .. كما يوقظ فكرة الصّداقة الوفية في حديثه إلى «خليل الصّفاء» ..

وأخرُ قصائد هذه الزّمرة ، «إربة الأريب» التي أرسلها خبيب عبد الصّالح ، فهي نموذجٌ خاصٌّ ، لما يُسمّيه شاعر السّويد الأكبر ، «إيرلاغركفيست» : «تناول المواضيع الصّغيرة في أسلوب فخم» .. فموضوع القصيدة «التبغ» ، لكن التناول كان بأسلوب فخم حقا ، لأنّه أثار فكرة الأمل المبعوثة من وعد الحبيب ... ثم أعطى للحبّ صورة القرابة .. ورأى في اشتعال التبغ صورة للحياة : «سواد شباب في بياض مشيب» ..

موضوعات هذه القصائد وما يُشبهها ، في شعره ، تصلح موضوعا لبحث فيه الصّداقة وما يتفتّح منه من قضايا الحياة : لغة ، وأدبا ، وتعاونا ، وزمانا ، وحبّا ، وفكاهة وجدّا ، ومرضا وصحّة ... الخ ..

أمّا قصائدُ الزّمرة الثالثة ، وما يُشبهها من شعره ، فتتناول : العروبة ، والبيئة ، والشّرق ، والشباب ، والأدب والدين والتاريخ .. وعناوين قصائدها السبع : دعوتي لأمتي .. دمعة اسكندرون .. غصّة للأدب والدين والتاريخ .. زفرة شاعر .. غصّة على الدنيا .. إنّ الشباب مطيّة الإنجاح .. سلاحك يا ابن الشرق أعوج ..

القصيدة الأخيرة ، وحدها ، نشرت في جريدة «نفس» الدمشقية ، ١٣٤٨هـ ، إبّان الانتداب الفرنسيّ ، وفيها جرأة على المستعمر واستهانة لأبناء أمّة حيّة : الدين ، واللغة ، والوطن .. إلى الشجاعة والتحرر والوحدة مقومات الحيّة من الحضارة والتقدم ..

الزمرة الرابعة هي القصيدة الرابعة والعشرون في القصائد المصوّرة ، سمّاها صاحبها : «بين الحياة والموت» .. أبياتها : مائتان وخمسة وأربعون بيتا من البحر الكامل التام ..

هذه المطوّلة تمثّل زمرة بذاتها ، وهي ، عندي ، مثالٌ لوعي الوعي في تاريخ الثقافة الإنسانية وفي اختيار تلك الثقافة اختيارا خاصّا يصوّر معاناة محمّد حمدان الخبر ومذاقاته . فماذا في القصيدة ؟ وهل تحدّد مرتبة الشاعر العارف ؟.. وهل هو ما يستحثّ قوّة الإنسان متلقّي درجة الوعي المعرفي الذي يجعله حرا ومحبّا ؟

حقّق الشاعر لقصيدته ما نسمّيه في البلاغة : نظرية الأناقة ، فقد تأنّق في ابتداء كلامه .. وفي تحوّلات معناه من صورة إلى صورة .. وفي اختتام الكلام ..

افتتح القصيدة بقوله :

إنّ الّذي خلق الوجود جميلا جعل الحياة إلى الممات سبيلا

وختمها بقوله :

فاذهب كما هبّ الصّبا سحرا .. به يحيى الكتيبُ وان أقام قليلا ..

ومن المفتتح والمختتم عُلم وعيه الثقافيّ ، فمضى يقابل البيتَ الذي أسرجه الله في مهجته .. وألحدت فيه الثقافة الإنسانيّة والموهبة الإلهية ، فهو يسافر في أسفار الفكر ، منذ ادّه إلى يومه .. تبعى غربة الإنسان المعرفيّة ، وهو في أسفاره يستأنس بضياء شعلة إلهية تتقدّ فيه من الداخل ، فتسحه سكينة يقين وطمأنينة وعي ..

لذلك نُعتبر القصيدة : رصداً ثقافياً لتجربة الإنسان الكوني في وعي وجوده . . ورصداً ذاتياً لتجربة محمّد حمدان الخير ، إنسان القرداحة المحلي ، وفي وعي ثقافة إنسان الكون الكليّ من جهة ، وفي وعي الذات الفردية لوجودها ، وهي تتفتّح بين الحياة والموت . . وهل الموتُ يرعى التفتحات ؟

رصد وعيُ الانسان الكونيّ ، في القصيدة ، باثنتي عشرة صورة ، هي : سباقُ الأحياء نحو الفناء . . العقل في ابن الطين . . ظل الحياة الظليل . . الجسم والنفس . . القرآن والحديث . . النار والفردوس . . المهتدون والضالون . . حكمة الله ومحبات الفلاسفة . . آدم والبرية . . النفس الواحدة وزوجها . . العدل والعباد . . الأنبياء ووحدة المعنى . . الشر والخير . . فما هي صور الرصد الذاتي ؟ .

وعى الشاعر تجربته ومنابعها في الثقافة وفي نفسه ، فصوّرها بخمس صورٍ ، هي : إجالةُ الفكر في التراث الإنسانيّ واستلهام اليقين الداخليّ . . صورةُ الحقيقة في منهج الإسلام المعاني الوجود بصورة هبةٍ من ذي الأمر صورة التوحيد في منظار المحقّ ومنظار المدّعي . . صورة المصير المحقّق بالفعل وبالقول . .

كلُّ واحدةٍ من هذه الصور مرقاةٌ لاكتشاف ما أسمّيه : «محمد حمدان شاعريةً قانعةً أم طامحة» . . أو ما أسمّيه أحياناً : «شاعرية الجوهر الفرد» .

هذه القصيدة المصوّرة : «بين الحياة والموت» . . زهرة بذاتها ؛ وهي مثلُ الزُّمر الثلاث السّابقة تصلح موضوعَ دراسةٍ في وعي الوجود . . وأظنها أكثر قصائد الشاعر تجرُّداً من المقيّدات . . وأكثرها اقتراباً من المطلقات . . لذلك أمثّل لتذوّقها بتحليل بيت منها ، أو بيتين ، فهل نستطيعُ إعطاء المفتاح للدخول إلى مربّع : الجمال والحب والحق والوعي ، بتحليل بيتٍ أو بيتين من قصيدةٍ سمّاها صاحبُها «بين الحياة والموت» ؟ .

أيُّها الأصدقاء

شعرتُ أنّ قصيدة «بين الحياة والموت» ، ليس لها ما لغيرها من الشعبية التي تتمتّعُ بها قصائدُ محمّد حمدان الأخرى . . لدى عارفي شعره . .

ربّما لأنّها تجربةٌ وعيٍ تامٍّ ، يخصُّ الإنسانيّة كلّها . . والناسُ يتحمّسون عادةً ، لما هو خاصٌّ . . أكثر من اندفاعهم لما هو عام . .

وربّما ، لأنّها تعتبر قصيدة ثقافيّةً أكثر منها انفعالية . . والشعر المعتبر هو شعرُ الانفعال المصوّر . .

لا اكتم أنّني أحسست بروح القصيدة إحساساً مختلفاً . . أحسستها طائراً يُحلّق في فضاء الخلود . . وتصوّرت أنني أرى طائر الخلود : رأساً وجناحين وجسماً وذيلاً . . وبدا رأسُ الطائر الشعريّ في المطلع الذي يؤسّس القصيدة . .

أعرفُ أنّ هذه الرؤية خاصةً . . لكنني أعرفُ أن التحليلَ الهادىء الحنون يجعلُ الخاصّ في خدمة العامّ . . ويحوّل الرؤية الذاتية موضوعاً غيرياً يخصُّ الكلَّ كما يخصُّ الفرد . . فهل تسمحون بلحظات من التحليل الرؤياوي لبيتٍ واحدٍ ، أسّس به الشاعر قصيدته : «بين الحياة والموت» ؟

إنّ الذي . . خلق الوجود جميلا جعل الحياة إلى الممات سبيلا

كيف نعي السرّ الغنيّ في هذا البيت ؟ أليس الفنُّ عبارة عن جدلية الحبّ والجمال في وعي الشاعر ولا وعيه .. أعني ما نسميه : صميم الإنسان ؟

رؤيا الشاعر في البيت واضحة .. خلاصتها : الوجود جميلٌ كما خُلق .. فإن قيل هذا الرأي : أو تعتبر الوجود جميلا مع أنّ الموت يلازم الحياة ؟ أي جمال يستمتع به الانسان مع مطاردة الممات له ؟ ..

لم يجب الشاعر إجابة منتظرة ، مألوفة ؛ لأنّ رؤيته واضحة ؛ الوجود جميلٌ ؛ لأنّ مبدعه خلقه جميلا .. وليس في خلق الرّحمان من تفاوت .. الحياة والموتُ يتجاذبان الوجود .. لكن الحياة سبيلٌ إلى الممات .. فالممات هو الغاية في بناء الوجود الجميل .. ألا تبدو الرؤية غريبةً ؟

نعيدُ التأمّل في البيت ؛ لنكتشف جمال الوجود وجمالَ الحياة والموت معاً .. ففي البيت عبارتان بعضهما تأكيد ووصل :

العبارة الأولى : خلق الوجود جميلا

العبارة الثانية : جعل الحياة سبيلا إلى الممات ..

التأكيد والوصل بافتتاح البيت : «الذي» .. واسم الموصول يمتصُّ جملة الصّلة فتتحدّ به .. فنقول : خالق الوجود جميلا .. جعل الحياة سبيلا إلى الممات .. هذا أكيد .. فكيف نعي هذا التأكيد ؟

منذ أفلاطون تعتبر درجات الجمال هي درجات الوجود .. عند الفلاسفة وعلماء الجمال .. وهي أربع : الحسّ ، والنفس ، والعقل ، والمطلق .

فالوجودُ الحسيُّ جميلٌ ؛ لأنّه وجودُ الجاذبيّة الدّوّارة .. تدور الطبيعة في فصول .. وبعد كلّ انغمار بالخريف والشتاء يكون بعث الربيع وبعث الصيف .. ومثل ذلك دورة الدّم في الإنسان .. تذوُّق هذه الدرجة من الجمال يحتاج وعيا .. فكيف نعيه ؟

والوجودُ النفسيُّ جميل ، لأنّه وجودُ الأخلاق الخلاقة .. تدور المجتمعات بين أحوال من الفساد والانحطاط والصلاح .. لكن شهوة النفس وحنينها يخلقان أخلاق التجاوز ..

والوجود العقليُّ جميل ؛ لأنّه وجود الرّوابط الضابطة .. ضبط الرّوابط يصل بالانسان إلى اكتشاف العلائق في الوجود وتوجيهها فيكون العلم والتقدم ..

أما الوجود المطلق فجميلٌ أيضاً ؛ بل هو الجمال بالذات .. بجاذبية كماله ترتفع الدرجات السّابقة لتكون أكثر جمالاً وكمالاً .. والممات نباهة كشافة تبلغ الكادحين غاية السّعادة ؛ لأنّ الممات قوة التجدد الموصلة إلى الخلود .. فهل فتح لنا الوعيُ باب المربع ؟

أيّها الأصدقاء

إنّ وعيَ الشعر .. يحتاج صبراً وتأمّلاً ؛ لأنّه صورةٌ لمعنى حياةٍ ، عاشها الشاعرُ .. والذاتية العليا الصّادقة تفترضُ الموضوعية الدقيقة ..

لقد جرّبتُ الموضوعية والذاتية معاً ؛ لأعي درجة محمّد حمدان الخير في مستويات الجمال والحبّ والفن والوعي . منطلقاً من مداخل في قصيدة الوعي .. وإن كان يفضّل جلال الحياة على جلال الشعر بقوله :

والشعرُ ليس يجلُّ ميتاً لم يكن ... بفعاله قبل الممات خليلا

أمّا عن مستويات الجمال والحبّ والوعي ، فيقول :

سبحان ذي الأمر الذي ما يقضه ... في الكون أصبح نافذاً مفعولاً
أزلٌ عن التحديد جلَّ وسرمَدٌ ... وهب الوجود كمالُه التكميلا ..
وأقول ان العقلَ منه مبدَعٌ ... ما قلت كان كغيره مجعولا
هو خالقُ النفس التي من مائها ... في كلِّ حيٍّ للحياة هيولى ..
والنفسُ تمثلُ في الجسوم ولن ترى ... في غير جسم للنفوس مثولا ..
يا أيها الإنسانُ حسبكَ ضلّةً ... أن لاترى ظلَّ الحياة ظليلا
رفّتْ عليك مطلةً بشروقها ... فاختار وجهك أن يكون أفولا ..
سافرتُ في الأسفار أنتجع الرؤى ... وأسوم فيها الجدَّ والتحصيلا
وعُنيتُ بالتوحيد لم أعدل به ... علماً ولم أر للإله عديلا
وقبستُ نور النار من زيتونةٍ ... لم يخش باسقها النضير ذُبولا
والله أسرج بالسفين ويسرده ... من زيتها في مهجتي قنديلا ..
فاذهَبْ كما هبَّ الصبا سحراً .. به يُحيي الكثير وان أقام قليلا ..

إنّ «بين الحياة والموت» : قصيدةٌ تقدّم صاحبها مستوعباً وعي الإنسانية للجمال والحبّ والفنّ والوعي .. وتقدّمه عارفاً ما أودع به من قوى مضيئة ، تؤنسُ بقنديلها وتهدي لسعادة الحياة : جسدية ونفسيّة وعقليّة .. كما تهدي لسعادة الحياة المطلقة .. وتلك السّعادة تتحقق بالممات .. ألم يؤسّس القصيدة بقوله :

إنَّ الذي خلق الوجود جميلا ... جعلَ الحياةَ إلى الممات سبيلا ..

لم يكن محمّد حمدان الخيّر في هذا الأفق الأعلى دائماً .. فقصائده في : الرثاء .. ومراسلاته للأصدقاء .. وصيحاته للعروبة والإسلام .. أنماط أخرى من الحماسة والحرارة .. فيها التبرم بضيق الواقع والبيئة .. لكنه آمن بالشباب في وطنه وبالأصالة في قومه .. وأثمر إيمانه الرجاء فكان من بيئته من يحقق المنى ..

عجب

عجبت لمعشر صلّوا وصاموا ... ظواهر خشية وتقىً كذابا
وتلقيهم حيال المال صمّاً ... إذا داعي الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه ... كأن الله لم يحص نصابا
ولولا البخل لم يهلك فريق ... على الأقدار تلقاهم غضابا

أحمد شوقي